ترجمات | قسم الدراسات الدينية | 23 نوفمبر 2016

توظيف الاستعارة في كتابة التاريخ:
فتح الأندلس أنموذجاً

أنور لوقا
ترجمة: محمد الرحموني

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2016
All rights reserved © 2016

توظيف الاستعارة في كتابة التاريخ[1]:

فتح الأندلس أنموذجاً

بقلم: **أنور لوقا**

ترجمة: **محمد الرحموني**

(1) La métaphore dans l’écriture de l’histoire: L’exemple de Fath Al Andalus; Romania Arabica, Festschrift, Rinhold Kantzi, Zum 70, Gunter Nar Verlag Tübingen, 1966, pp 201-211

دأب الإخباريون العرب على ترديد الحكاية التالية التي يفتتحون بها {أخبار} فتح الأندلس، وهي الحكاية[1•] التي سيستعيدها المؤرخون والروائيون الإسبان[2] ويطوّرونها بدورهم:

«كان في دار مُلك لُذَريق آخر ملوك القوط بيت عليه أقفال، فكلّ من يلي منهم المُلك يزيد قفلاً على ذلك البيت، ولم يفتحه قطّ ملك منهم ولا علم ما فيه حتى انتهت الأقفال إلى عشرين قفلاً. فلمّا ولي لذريق عزم على فتح الباب والاطلاع على ما في البيت. فأعظم ذلك أكابرهم وتضرّعوا إليه في الكفّ، فأبى وظنّ أنّه بيت مال، ففضّ الأقفال عنه ودخله، فأصابه فارغاً لا شيء فيه سوى تابوتٍ عليه قفل، فأمر بفتحه فألفاه أيضاً فارغاً ليس فيه إلا شقّة[3] مدرجة قد صوّرت فيها صور العرب على الخيول وعليهم العمائم، متقلّدي السيوف، متنكبي القسّي، رافعي الرايات على الرماح، وفي أعلاها كتابة بالعجمية، فقُرئت فإذا هي: «إذا كسرت هذه الأقفال من هذا البيت وفتح هذا التابوت فظهر ما فيه من هذه الصور، فإنّ الأمّة المصوّرة فيه تغلب على الأندلس وتملكها». فوجم لذريق وعظم غمّه وغمّ العجم، وأمر بردّ الأقفال وإقرار الحرّاس على حالهم».

***

إذا كانت كلّ حكاية تهدف إلى إطلاع القارئ على شيء يجهله، فإنّ هذه الحكاية التي حظيت بشهرة عالية قد حيكت تحديداً حتى توجّه اهتمام القارئ نحو المجهول الذي ينبغي الكشف عنه. فهي تتحدث عن سرّ محفوظ بعناية، وعن كشف هذا السرّ. لقد وقف لذريق أمام البيت الذي أقفله أسلافه في حالة نقص فعزم على نيل ما ظنّ أنّه كنز مخفي.

•1 كلّ الشكر للسيد م. لويس بانياي M.Louis Panier، الأستاذ بقسم علوم اللغة بجامعة Lumière Lyon-II، ومدير مركز تحليل الخطاب الديني CADIRعلى الاهتمام الذي أولاه لهذا النص.

2 - هذه الحكاية التي تنسب في العادة إلى المؤرخ الأندلسي ابن حبيب (ت 238هـ/ 852م) أوردها في مؤلفه "تاريخ افتتاح الأندلس"، ذكرها]المؤرخ[المصري ابن عبد الحكم (ت 257هـ/ 871م) في ذيل]مؤلفه["فتوح مصر وأخبارها" المعنون بـ "فتوح إفريقية والأندلس" (انظر النص العربي المصحوب بترجمة إلى الفرنسية Conquête de l'Afrique du Nord et de l'Espagne، نشر أ. قاتو A.Gateau، الجزائر، دار كاربونال Carbonel 1962.) وذكرها معاصره الجغرافي ابن خرداذبه (ت 270هـ / 883م). ثم شاعت في ما بعد عن طريق كلّ من ابن القوطية، وابن الفقيه، والقزويني، والنويري، والمقّري، حتّى أضحت تقليداً أدمج ضمن حكايات «ألف ليلة وليلة». وإذا كان الإخباريون المسيحيون المعاصرون لفترة استيطان العرب في الأندلس لم يذكروا هذه الحكاية فقد بثّها لاحقاً لوكاس دي تي Lucas de Tuy وقيتيار دياز دي قوماز Guttiere Diaz de Gomez ضمن أدب شعبي استلهم في الآن نفسه أدب الرومانس Romances والرواية، وهكذا انتشرت الحكاية حتى وصلت المكسيك نفسها. (انظر:

Bibliographie et extraits in: René Basset (1898): « la maison fermée de Tolède »; Bulletin de la société de géographie et d'archéologie d'Oran, XX, 42-58.

نعتمد في عملنا على الرواية التي ذكرها المقري ونقلها محمود علي مكي (1985-86) في[مقاله] "الأساطير والحكايات الشعبية المتعلقة بفتح الأندلس" (ص 31) [المنشور] في:

Revista del Instituto Egipcio de Estudios Islamicus en Madrid, XXIII, 27-50

3 ـ الشقة جنس من الثياب، راجع لسان العرب مادة ش ق ق. (المترجم)

انطلاقاً من هذه النقطة يتحدّد منطلق النصّ ومنتهاه: سعيُ ذاتٍ منفصلة عن موضوعها لتتصل به. إذ يفهم فعل لذريق المتمثل في "الفتح" على ضوء إقرار الإقفال الذي اتخذه من سبقه من الملوك. هذا هو المستوى الأولي للدلالة الحاصل في العالم الصغير الذي تمثله الحكاية، ونعني به المستوى المنطقي الدلالي.

وفي ما بعد، وفي المستوى السردي للبنية الدالة يتمحور الفعل في شكل أدوار فاعلة. وينسج الحبكةَ ثلاثة أزواج من الفاعلين هم]على التوالي[: الذات/الموضوع، الباث/ المتقبل، المساعد/المعرقل. وإنّ العلاقات التي يشبكها هذا الثلاثي أو يفصلها والمواقع الخاصة بكلّ زوج لا غنى عنها للاشتغال المنطقي للحكاية. لنذكّر في هذا السياق بالدور الهام للذات (لذريق). إنّها تتحدد انطلاقاً من علاقتها بالموضوع. وبالفعل فإنّ رغبتها تتطوّر ضمن بعد تداولي، بما أنّها تبحث عن شيء محسوس ذي فائدة مادية thésaurisable [4]، وكذلك ضمن بُعد عرفاني بما أنّ الأمل يساورها في وجود هذا الكنز (تتطلب المعرفة قيماً ذات طبيعة إبستيمية أو حقيقية)، وأخيراً ضمن بُعد تيمي[5] thymique مثّلته الرغبة وعبّرت عنه بكلّ وضوح، في نهاية الحكاية، الخيبة التي أصيبت بها (القيمة الديسفورية Valeur dysphorique)[6]. ولمّا كان لذريق ذاتاً فاعلة، فهو بالتأكيد موصوف بالقدرة والإرادة باعتبارهما كفاءة البرنامج التداولي. ولكن لا معرفة دقيقة له بالموضوع. ومن ثمّ اقتضى السرد ذاتاً]أخرى[تجلّت في المستوى العرفاني. ومن ثمّ لن يكون لذريق البطل، بل الأمّة العربية مجسّدة في رسالة تتجاوزه. وهكذا هيمنت على الحكاية [الأولى] حكاية جديدة عوّضت عملية إلغاء حالة النقص البدئية المعهودة [في عملية الحكي].

المستوى الثالث من التحليل الذي يعقب المستويين المنطقي/الدلالي والسردي هو المستوى المتعلق بمحتوى النص بما يتضمنه من صور حاملة لأغراض. ومن المفارقات أنّ هذا المستوى الخطابي، بصفته المكوّن الأكثر تعقيداً من بقية المكونات (الأوّلي والسردي)، هو أوّل المستويات التي تتهيّأ للقارئ. فالأدوار العاملية les rôles actantiels التي تتناسب وضعياتها مع الوظائف التركيبية للفعل هي ماثلة أمام أعيننا في صورة عاملين قابلين لأن يُعرفا، وفي صورة شخوص يسمّون ممثلين ندركهم عياناً (ملوك، حرّاس، ...إلخ). وأمّا الصور فهي حاضرة مدى النص ضمن مسار تصويري parcours figuratif يميط اللثام عن قيم ذات دلالة وكذلك عن أغراض وحوافز motifs، فالباب، على سبيل المثال، هو مكان عبور يسمح بالحركة عندما يكون مفتوحاً، وأمّا إذا كان مغلقاً فهو يحدّ فضاءين. كما أنّ ذكر عبارة "باب" تحيل قطعاً على شيء من أشياء العالم. ولكنّ المقاربة السيميائية تتجنب هذا المسلك المرجعي piste référentielle، فبمقتضى سعيها لاقتناص المعنى تترك للنصّ حصريّاً المبادرة بتدقيق محتوى الصور بالطريقة التي يختارها لأجل استعمالها

4 ـ كتبت العبارة في النص الأصلي thésorisable وهو خطأ. (المترجم)

5 ـ مقولة تصنيفية تتأسس تسميتها انطلاقاً من معنى كلمة تيم Thymie: «حالة مزاجية، استعداد عاطفي أساسي» (Petit Robert). إنّ المقولة التيمية تصلح لأن تكون الرابط المباشر بين علم المعنى وعملية إدراك الإنسان لجسمه إدراكا حسّياً). Greimas/Courtés1979: 396

6 ـ الانزعاج نتيجة الاكتئاب. (المترجم)

ومن ثمّ تأويلها، فهو لا يجمع بينها إلا ضمن تسلسل محدّد. وهكذا يقتصر دور القارئ على التعرّف إلى هذه الصور وتصنيفها ووصف ما بينها من علاقات.

تتشكل الصور الرئيسة حول ثلاثة أقطاب، هم: الممثلون والفضاء والزمان. ومنذ بدء الحكاية رسم الممثلون ـ الملوك- بأنفسهم الزمن المتمثل في مرحلة عشرين فترة حكم متتالية. فضلاً عن أنّهم حدّدوا الفضاء، فكلما تقدّم الزمن زادت أقفال البيت. وفي هذا السياق نذكّر بقاعدة التركيز المطبقة في بناء فضاء النصّ: طليطلة ـ التابوت ـ الشقة المدرجة ـ الصور على الشقة ـ الكتابة المفسّرة للصور. إنّها ليست قاعدة سردية بل خطابية خاصة بتطوّر المضمون. فهي تستجيب للتكثيف الذي خلقه النص، إذ صهر في سيرورة واحدة؛ الفواعلية Actorialisation والتفضئة Spatialisation والتزمين Temporalisation

في تاريخ هذا البلد، كلما صعد ملك عرش السلطة فإنّه يدشّن بذلك مكاناً مختلفاً عن مكان سابقه ويحتفظ لنفسه بالسرّ. وهكذا تمّ تعزيز أهلية الذات qualification du sujet بإضافة مباشرة أساسية تمثلت في قفل هو رمز امتلاكها أدوات الغلق: إنّها "سلطة المفاتيح"[7]. وهكذا تعود نبوءة نهاية المُلك إلى بداية المُلك نفسه. إنّ لعبة البداية والنهاية تتمحور حول صورة الملك.

إنّ البنية المتواترة لهذا التداخل تلحّ بدورها على السرّ المجسّد فضائيّاً بالفراغ الذي ينطوي على شيء مستور. ولكن هل يعطي البيت والتابوت المغلقان القيمة نفسها لهذه الدلالة؟ فمن جهة المبحث السردي يعني الفراغُ الفشلَ، مثلما هو الأمر في القصص حيث يشكّل فشَلاَن قاعدة (وإذا حصل نجاح فإنّه يشكل في مستوى ثالث تعديلاً للقاعدة). أمّا من جهة الفاتحين الطارئين [في الحكاية] فإنّ حماقة لذريق أمر مفرح.

إنّ رابط الخطاب بين لذريق والفاتحين يختزل هنا إلى خداع بصري. فمن جهة تطوّر مواقع الشخصيات وعلاقاتها البينية، فإنّ تدخل الراوي مفضوح. إنّ المتلفظ الذي تسلل إلى الحكاية لأجل تفعيل كيفية اشتغال السرّ (حماقة، فكشف) لم يتأخر عن قلب نسق الحكي. ففي منطق السرد يتطلب استدعاء موضوع وجود ذات ترغب فيه. ولذا فنحن نتساءل: من ذا الذي فكّ عُجمة الكتابة التي في أعلى الشّقة؟ بل الأخطر من ذلك أنّ هذا الاختلاف بين لغة الكتابة ولغة السرد التي نقلتها لنا في مشهد مخصوص هو نفسه الذي يفصل بين الصورة الموصوفة واسم العرب. فهذا الاسم غير مكتوب ولكن المتلفظ هو الذي سارع إلى التصريح به. والخلاصة أنّ العلاقة بين لغة الكتابة ولغة السرد من جهة وعلاقة الصورة بالاسم من الجهة الثانية تطرح مشكلاً سيميائيّاً مزدوجاً لا حلّ له.

7. Calloud 1977: 51

ولكن إذا ما اعتبرنا وضوح الرسالة للناطقين بالعربية الواضحة قبلاً للأعاجم بمثابة المستوى الثاني للفتح فإنّنا نقف، استناداً إلى الصورة الفضائية المجسّدة للفراغ، على تحقق وظيفتها الزمنية، بما أنّها انطوت على الدوام على محتوى ظلت معرفته مؤجلة. أليس ذلك فراغاً استباقيّاً Cataphorique استدعى استيلاء العرب على الأندلس المعلن عنه مسبقًا؟

ومع ذلك نظلّ في الفراغ، إذ لا يمكننا، اعتماداً على العناصر السردية المتاحة، إدراك انتظام السرد للنبوءة المعلنة عن فتح العرب لإسبانيا. فما الدور الموكل للذريق؟ هل هو مرسل الفتح؟ هل هو مرسل حكاية الفتح؟ إنّ منتهى التحليل يبيّن أنّه ليس مسؤولاً عن ذلك، فهو لم يطلقه، من المؤكد أنّه يضطلع بدور ذات موصوفة بالقدرة والإرادة، ولكنّ معرفته غير المؤكدة تقلص من كفاءته compétence. فمن المؤكد أنّ موضوع لذريق لم يكن الكشف عن العرب بل عن الكنز. والصيغة المستعملة لا تجعلنا نشكّ في ذلك: «إذا كسرت هذه الأقفال من هذا البيت وفتح هذا التابوت فظهر ما فيه من هذه الصور، فإنّ الأمّة المصوّرة فيه تغلب على الأندلس وتملكها...»، إنّه شرط غير معقول خلق تزامنية عجيبة بين أشياء لا علاقة بينها.

إنّ المرسل الحقيقي الذي أعطى إشارة انطلاق الحدث ليس سوى اللغة. إنّه مكتوب، وهو ليس مكتوباً على قطعة القماش المخبأة وحسب، بل هو مكتوب أيضاً في نسيج الحكاية، حيث يتكرّر الفعل «فتح». والأمر يعود إلى كون اللغة العربية تبيح، بطبعها في الاستعمال، الانتقال من فتْح (نقيض الإغلاق) إلى فتْح (الاستيلاء على أرض الكفار). وهكذا ضيّقت اللغة العربية الفجوة بين المفهومين إلى درجة جعلتهما دالاً واحداً، فغطّت بذلك على الاستعارة الأساسية، وجعلت بينهما ترادفاً تامّاً.

يشكّل نصّنا، بفضل المشهد الذي توفره بنيته التصويرية، صورة أنموذجية لكيفية تكوّن الاستعارة métaphorisation [8]، فنحن نكتشف فيه المجاز في معناه الحقيقي. وبفضل المحتوى المنطقي- الدلالي للفعل الذي انكشف وانتشر انتهى الأمر بالفعل «فتح» إلى أنّه سمح بدخول الفاتحين فعلاً إسبانيا. وفي سبيل تفسير أفضل لكيفية تجاوز هذه الفجوة اللسانية فإنّنا سنبادر إلى «وصف انتظام حقول الملفوظات التي تظهر فيها هذه المفاهيم وتنتشر»[9]، مقتدين في ذلك بالطريقة التي باشر بها ميشيل فوكو المفاهيم.

8 - ما يهمنا بالدرجة الأولى، ضمن منظور المسارات التوليدية للخطاب هو كيفية نشوء الاستعارة (لا الاستعارة في حدّ ذاتها) باعتبارها إجراءً لإنتاج الخطاب. وقد كان ر. جاكبسون R. Jacobson محقّاً عندما لفت الانتباه إلى المظهر الاستبدالي لهذا الإجراء. وهكذا فإنّ عملية نشوء الاستعارة باعتبارها عملية استبدال فرد سيميائي بفرد آخر تتطلب وجود جدول استبدالي [...] إذا اشتغلت الاستعارة بطريقة طبيعية ضمن إطار الجملة وأمكن تعيينها ووصفها ضمن هذا السياق فإنّها لا تصبح فعلاً خطابيّاً إلا إذا تمّ التوسع فيها. بعبارة أخرى لا تكون كذلك إلا إذا شكّلت تناظراً مجازيّاً يتجاوز الجملة. ومن المتعارف عليه أنّ طرق الاستعاضة الاستبدالية تظهر في صورةٍ فاصلةٍ للتناظرات وفي ما بعد وبطريقة متواترة تظهر في صورةٍ واصلةٍ لهذه التناظرات تربط بعضها ببعض. وهكذا فالتناظرات المجازية إمّا تحيل على مجازية أخرى، وإمّا على تناظرات غرضية أكثر تجريداً. Greimas/ Courtés,1,1979: 226-228

9. Foucault 1969: 75.

إنّ التماثل بين المعنى الحقيقي لفعل فَتَحَ ومعناه المجازي قد اصطلح عليه منذ القرن السابع الميلادي، [10] ومن ثمّ استقرّ هذا التماثل تسمية عادية بل معيارية، وذلك بتأثير النصّ القرآني حيث نشأ المصطلح. ولقد خلّدت السورة القرآنية الشهيرة «الفتح» انتصار الإسلام الحاسم إثر فتح الرسول مكة. ومن هنا جاءت الجبرية الرمزية: «النص المؤسس يفرّخ صـــوراً»[11]. وهكذا سيُسمّي المؤرخون المسلمون، تباعاً وبشكل منتظم، كلّ خبر استيلاء على بلد كافر فتحاً. ولولا خشية الإطالة لأحصينا تآليفهم المعنونة بـ« فتح / فتوح...»، إلخ[12].

إنّ العودة إلى فتح مكة سنة 629 م باعتبارها السنة المعلومة لتشكل هذا الجدول تعني الانطلاق من المعنى الموحد للعلامة signe فتح[13] باتجاه عملية الاستعاضة التي ولّدتها دلاليّاً[14]. من المعلوم أنّ المعارك الأولى التي خاضها الرسول ضدّ أعدائه (بدر ـ أُحُد ـ الخندق ـ الحديبية ...، إلخ) سمّيت في الغالب غزوات. ولكنّ لحظة الاستيلاء الحاسم على مكة تحوّل «الغزو» إلى «فتح»، لأنّ الله سبحانه وتعالى الذي تجلّى في دور المرسل في أبهى صورة قد استعمل هذه العبارة لينعت بها بجدارة النصر الذي جاء. ولكنّ دخول محمد الصعب إلى موطنه الذي هُجّر منه يحيلنا كذلك على فتح الفضاء. ومهما يكن من أمر فإنّ هذا المحتوى الدلالي sémantisme للجزاء يعلن اكتمال البرنامج السردي وفق صيغته الكلاسيكية المعلومة بحيث إنّ:

ف =[(ذ ح 1 م ق ذ ح 2) - (ذ ح 1 م ق ذ ح 2)]

ـ ف = الفعل المحدد من قبل المرسل أي الله

ـ ذات الحالة 1 = محمد

ـ ذات الحالة 2 = أهل مكة

ـ موضوع القيمة = مكة

ـ اتصال انفصال

10. Picoche/Honneste 1994: 112-124

11. Legendre 1992: 196

12 - بالعودة إلى ابن النديم أحصينا خمسة عشر مؤلفاً بعنوان « فتح» أو «فتوح»، انظر: الفهرست، دار المعرفة، بيروت. د. ت، الفن الأول من المقالة الثالثة ص 131 وما بعدها. (المترجم)

13. Ricœur 1975: 129-130

14 - إنّ المفاهيم الدلالية المقترنة بـ "الجوهر" المتجاوز للسانيات تستدعي قبل كلّ شيء وصفاً للاستعمالات التي تستأثر بتحديد المعنى Benveniste (1966: 307 ,1).

لن نقدّم جرداً لكلّ مشتقات الجذر ف ت ح في القرآن (ذكر في أكثر من ستين موضعاً) لأجل رسم المسار التصويري لهذا المفهوم. بل سنكتفي ببعض الآيات الأنموذجية التي رسمت مسار تكوّن هذا المعنى. استعمل الفعل «فتح» بدءاً في معناه الحقيقي [تعلق الأمر بإخوة يوسف: {وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰأَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ} (يوسف 65/12)]، وقد عنى المعرفة (معرفة المخفي وغير المعلوم) باعتبارها موضوعاً تبحث عنه الذات. إلا أنّ المعرفة هي صفة من صفات الله، فالله هو العليم. وهذا هو مغزى تكرار اثنين من أوصاف الله متلازمين، ويتمّ التذكير بهما معاً بواسطة اسمين من أسمائه الحسنى هما: الفتّاح العليم. إنّ كفاءته بوصفه عليمًا حققت إنجازه باعتباره فتّاحًا. فبفضل هذا التمظهر المزدوج لوظيفته مرسلاً عليمًا ومسؤولاً عن كلّ ما يحصل للناس فإنّه ينشئ علاقة أبدية مع هذا المرسل إليه الجماعي: الناس. إنّ الله الرحمن الرحيم يسع جميع الناس وجميع مخلوقاته برحمته الواسعة[15]. ولكنّها رحمة اقتضت اعترافه بفضل المؤمنين[16] على الكفار[17]: المؤمنون يُجازَون، والكفار يُعاقبون. مثل هذا المرسل إليه المثنّى يضع بالضرورة الله في دور غرضي، دور الحكم الذي يفصل بين الفريقين[18]. هذا ما يفسّر تسمية اليمنيين القاضي فاتحاً. وهكذا فالحكم الإلهي المتمثل في فتح مكة المبين يشكّل فعلَ فتحٍ.

لقد أدركنا أخيراً كيف تزحزح الخطاب بالانتقال من المعنى الحقيقي لـ»فتح» إلى معناه المجازي (فتوح البلدان). فاستعمال المجاز قد اقتضى «قلباً لتراتبية المستويات الدلالية المتداولة: معنى حرفي مخفض إلى محتوى دلالة الالتزام، ومعنى مجازي مرفّع إلى محتوى دلالة المطابقة»[19]. إنّ الأمر يتعلق في المستوى السردي بكون لحظة الجزاء هي الوحيدة التي تعبّر مجازياً عن كلّ الحدث. ويبدو ذلك واضحاً من خلال نشوة المتلفظ المسلم ذي الوازع الديني. إنّه تفكير ذاتي قادر على المماثلة بين الموضوعين: إسبانيا ومكة/ الأندلس ومكة.

لقد خفض نصّنا المجاز إلى مستوى دالٍ مفرد جعله مجرّد وصف للمرجع، وذلك بانتخاب موضوع الفتح ومن ثمّ توسعته. وهكذا أزيلت الفجوة بين المعنى الحرفي والمعنى المحيّن أضحت العبارة المجازية عبارة حقيقية[20]. ألم تنته البنية السردية في هذه الحكاية إلى تعزيز التمظهر الخطابي؟ وهكذا فإنّ المماثلة

15 - {مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاس مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا} (فاطر 2/35).

16 - {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰ آمَنُواْ وَٱتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلأَرْضِ} (الأعراف 96/7).

17 - {وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ* حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ } (المؤمنون 77/23).

18 - {قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ} (الشعراء 26/ 117-118)، وانظر كذلك الأعراف 7/ 89

19. Kerbrat-Orecchioni 1986: 96.

20. Bordron 1985: 3-6.

تتضمن مباينة، وذلك في سبيل فهم الدلالة.[21] وبعبارة أوضح نحن إزاء «انزياح دلالي- تداولي متمثل في الاستعاضة عن محتوى بمحتوى آخر»[22]، إنّنا إزاء براديغم جزاء إلهي يسعى إخباريو الفتوح إلى تخليده، إنّهم يطعّمون، ضمنيّاً، النص القرآني بمرويات غريبة عنه.

لقد حصل الأثر التداولي[23] بفضل التنشيط السردي حيث يكتسب المفهوم[24] وجوداً حدثيّاً ذا طابع تاريخي. إنّها تاريخانية أنتجها البعد الخطابي للحكاية. ولقد بيّنا سابقاً كيف أنّ الخطاب ينتج المعنى أثناء عملية الحكي. إنّه يعرضه في صور موصولة بثلاثة محاور: محور الممثلين (لذريق/ العرب) ومحور الزمن (سلطان زائل/ سلطان قائم)، وأخيراً محور الفضاء (طليطلة/ إسبانيا، والداخل/ الخارج).

إنّ الصورة البدئية لعشرين ملكاً تشير إلى تعاقب الأجيال. إنّها تذكّر بسير تاريخ فعلي، و»ذلك عبر تعيين سلسلة الفاعلين التاريخيين كأحياء جاؤوا لأخذ أماكن المتوفين»[25]. وإذا كان العدد عشرون يتضمن معْنم sème الاكتمال ونهاية الزمن فقد كان بإمكانه أن يجسّد، بفعل التكرار نفسه الذي شكّله، كفاءة الذات الجماعية التي هي المُلك الإسباني، تلك المؤسسة التي تُتَوارث بانتظام. يفسّر بيار لوجندر Pierre Legendre رجل القانون والمحلل النفساني، الأمر بالقول: «في النظام القانوني يهدف التكرار إلى إيجاد تسوية ذات كثافة شكلية في سبيل جعل المجتمع أيّاً كانت صورته يمتثل للغاية الأساسية للإنسانية: البقاء على قيد الحياة والتناسل. إنّ الأمر مرهون بتفعيل النشاط غير المحدد لكلّ من هو مكلف قانونياً بتكرار البدايات. إنّها وظيفة ترتبط بالنتيجة بالموت وبالتكاثر على حدّ سواء»[26].

لقد ظهر الفرسان العرب بصورة واضحة في صيغة الجمع، وبالمثل ظهر «ملوك القوط» في صورة ذواتهم الاعتبارية. إنّنا إزاء مواجهة تمّ فيها تعزيز الصورة العددية لهؤلاء الفرسان بالرايات التي يرفعونها. إنّ هؤلاء المحاربين المصوّرين يظهرون رمز هويتهم وهم في بيت مغلق.

وبالفعل يبرز من خلال العلاقة بين الجماعة والذات منطق اجتماعي كان بيار لوجندر قد لاحظه عندما كتب: «إنّ التجمعات السكانية الكبرى تتوالد ذاتيّاً عبر إنتاج الذاتية subjectivité. فالذاتية تقع في قلب المشكلية الذاتية لكلّ المصطنعات، على أساس أنّ الذاتية نفسها أمر مصطنع. وإنّي ما أفتأ أقول: إنّه من فرط

---

21. Rastier 1994: 86, 96.

22. Kerbrat-Orecchionni 1994: 63

23 - "تصف التداولية بعض صيغ الكلام كما تصف المتخاطبين الذين يسعى كلّ منهم إلى التأثير في الآخر": (Ducrot/Todorov 1972: 423). وانظر أيضاً Armengaud 1985

24. Bordron 1985: 3; Greimas 1966: 128-129 « Prédicats et actants».

25. Ricœur 1985: 161

26. Legendre 1985: 16

التأكيد على الذاتية ومن فرط طرحها كمسلمة تحققت. وبعبارة أخرى لا أحد يولد ذاتاً»[27]. إنّ الحكاية هي التي خطّت بصورة مخصوصة المواجهة الوشيكة بين المجموعتين.

إنّ الكتابة المُعزّزة للصور تظهر الحدث وتؤكده. إنّ هذا الإطناب في المعلومة[28] الذي هو نتيجة التكثيف التلفظي ينتج وثيقة مزدوجة. بالنسبة إلى الممارسة التاريخية فإنّ الأثر واضح، وقد تمثل في الترميز وفكّ الرمز، وفي أيقونة الماضي السحيق وأسطورته. تشكّل فكرة الأثر حسب ريكور الرابط الأخير بين المنظورات الزمانية.[29] إنّ الخزانة المحفوظة بعناية في الغرفة المغلقة بالأقفال هي مستودع للأرشيف. إنّه يحوي دلالة الماضي عبر الإحالة عرضاً إلى الآثار. هذا النوع من البرهان المادي المدعّم والموثّق للتاريخ تطلق عليه اللغة الإنجليزية اسم «البيّنة» Evidence. إنّ بول ريكور إذ لاحظ الأمر يؤكد على القدرة التلفظية للأرشيف الذي أبان عن صبغته المؤسساتية ذات الوظيفة الثلاثية: «فالأرشيف يشكّل الخزين الوثائقي لمؤسسة ما. وتتمثل الفعالية الخاصة بهذه المؤسسة في أن تنتج الأراشيف وتجمعها وتحافظ عليها. ولذلك فالخزين المتكوّن خزين مرخّص به من خلال تعاقد يضاف إلى التعاقد الذي يقيم الكيان الذي يشكّل الأرشيف «أرشيفه» الخاص»[30]. ثم يخلص ريكور إلى الآتي: «فإذا كان التاريخ سرداً حقيقياً، فإنّ الوثائق تشكّل وسيلة برهانه العميقة. فهي تغذّي دعواه في أنّه قائم على الوقائع»[31].

وباختصار فإنّ هذا الالتقاء ليس سوى قول يحيّن لإسبانيا القوطية استعارة مستمدّة من تاريخ الإسلام المقدّس. إنّ الاستبدال الجدولي الذي مارسه هذا النص قد أطلق سلسلة من المسارات التصويرية المترابطة. وكلّ هذه الصور، إذ هي موضوعة ضمن أنموذج إجرائي، حاملة لقيم ومنشئة لآثار معنوية effets de sens[32]. إنّنا نثمّن فيها تثميناً سيمائيّاً الانسجام المولّد لليقين. إنّها نوع من التشاكل الجذاب الذي يوحّد بين العبارة والغرض. تجاوباً مع التمثل الأيقوني للفاتحين (يعني الاسم حرفياً: الذين يفتحون المغلقات)، ينشىء النص بلا هوادة صورة الإغلاق في شكل خطابي متركز كفيل باحتوائهم. ألا يعني ذلك أنّ **طارق** (الذي يطرق الباب) اسم الفاتح الحقيقي لطليطلة سنة 711م قد اخترق لا وعي النص؟ وعلى أيّ حال فالماضي والمستقبل يتداخلان في النصّ، مثلما أنّ الإغلاق يقتضي الفتح باعتباره الصورة الضديّة الكامنة. إنّه ترتيب قدّه منطق الانتماء المتبادل. وهذا هو أثر «الأقدار». لقد تكفّل السرد بذلك على أساس أنّه لم يبرز

27. Ibid.; 179

28 - هي عبارة من حقل نظرية المعلومات، وتعني الفارق بين العدد الأدنى من الإشارات (أو من عمليات الترميز وفكّ الرموز) الضروري لبث كمية من المعلومات المتوفرة، والعدد الأكبر، غالباً، من الإشارات (أو العمليات) المستعملة فعليّاً. (Greimas/Courtés1 ,1979: 309)

29 - بول ريكور، الزمان والسرد ج3 (الزمان المروي)، ترجمة سعيد الغانمي، ط1 دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت 2006 ص 170-171. (المترجم)

30 - المرجع السابق ص 172

31 - نفسه ص 173

32. Panier 1980, 1983

سوى تعاقب الوظائف فتتسلسل الأحداث بحيث يقود الحدث المجهول إلى الحدث المحتوم. ولكنّ المعنى Sémantisme المفترض للإدلوجيمidéologème [33] - عبارة فتْح - هو الذي تعكسه النبوءة المعلن عنها، والتي يتركز حولها خطاب الحكاية[34].

ليس للنص وهو يضع عملية الاستيلاء على إسبانيا تحت علامةsigne الفتح من مادة تاريخية عدا عبارة الفتح. لقد اكتسب هذا الموضوع كثافته وقوة هيكليته انطلاقاً من العنوان، خصوصاً وأنّ الأمر يتعلق باستعارة لفظية. وإنّ القول يبرهن عن ذاته في إحالته إلى الواقع الذي هو في الغالب[مجرّد] أثر من آثار الخطاب. إنّ ما سبق الفتح [فتح الأندلس] ليس سوى الفتح. [فتح التابوت].

إنّ استعمال الإخباريين للمعجم قد تمّ في إطار تسليمهم بكلام الله. «فعندما نطلق تسمية دقيقة على عنصر فإنّنا نحيل بذلك على مجمل النسق الذي ترتسم فيه تلك التسمية»[35]. هذا ما يفسّر انخراط القارئ العربي، وخصوصاً إذا كان مسلماً، في مثل هذا الصنف من الخطابات دون الالتفات إلى ما نحاول فهمه أي الانزياح الحاصل من «فتح» إلى «انتصر». إنّه يستمدّ اعتقاده من نوع من البدهيات الشائعة والمتجاهلة في الآن نفسه. إنّها بمثابة «خزّان من المعنى» كان ميشال دي سارتو Michel de Certeau قد شبّهه بـ: «الذهب المخفي في البنوك ويؤمّن العملة المتداولة، وبالمثل فإنّ إجماعاً ما يؤسّس وحده نسقاً سلطويّاً، لأنّه في الغالب ضمني، متوارٍ في أعماق المعتقدات غير المكتملة الصياغة (إذ ينظر إليها على أنّها بدهيات)، أو في التمثلات التي تعيّن محتويات هذه المعتقدات في زمن معلوم».[36]

وهكذا فإنّ التشكل التأريخي للنماذج في ثقافة معينة يتطابق، في مستوى التقبّل، مع الاعتراف بهذه النماذج. «إنّ التمثل يتخذ شكل تماسك ثقافي يوظّف الحقيقة»[37]. إنّنا إزاء عقد ضمني بين الكاتب والقارئ، يمكننا تسميته، أسوة بالميثاق السيرذاتي الذي اقترحه فيليب لوجون Philippe Lejeune، الميثاق الموضوعاتي.

إنّنا ندرك جيّداً آثارها المعرفية السلبية، فتشكيل خطاب «طبيعي» انطلاقاً من دال مقتطع من خطاب أول «غيبي» يعني إفساد الخطابين معاً عن طريق المحو الذي يسببه وقف تلفظي Débrayage énonciatif

33 - تحدد كرستيفا (1970: 12- 13) الإيديولوجيم بنظرية تعدّد الخطابات في اللغة.

34 - في مستوى البنى العميقة للخطاب يمكننا تحديد الإيديولوجيا في العوالم الدلالية القائمة: إنّه التجسيد اللساني الواقعي ببعديه: البعد النوعي المتميز بصنافة القيم، والبعد الوظيفي المتميّز بتتابع الوظائف. (Panier 1980: 14)

35. Herbert, « Remarques pour une théorie générale des idéologies », Cahiers pour l’analyse 9, été 1968, cité par Panier 1980: 17.

36. Certeau 1987b: 79.

37 - النص في وضعية ميثية، وانطلاقاً من هذه الوضعية الخيالية، وهو خيال يهدف إلى شدّ اللعبة الاجتماعية إلى خطاب سببي/ عليّ، أي انطلاقاً من إنتاج صور، يمكننا الحديث عن وضعية تكاثرية. (Legendre 1972: 197 – ibid.)

مغرم بالمتكرر وغير المتجانس [من الخطابات] مُضمّناً التواصل في اللّاتواصل. إنّ الغشاء الخارجي يحجب موضع القطيعة فالاستعارة تعني التحوّل والرحيل والتغيير. ومع ذلك فإنّ أندري رومان André Roman يعتبر الاستعارة صورة أساسية للهويّة[38]، ويؤكد أنّها صورة مرجعية. وعلى الرغم من أنّها ليست صورة لسانية فهي «لا تأبه بالواقع». إنّها تفتح بذلك سوقاً للمعنى مفتوحاً على التوسعات الأكثر غلوّاً بما في ذلك الشكليات المؤسسة للشعائر الأرثذوكسية. إنّ الأرثذوكسيات تنشأ في الغالب انطلاقاً من تناصٍ غاية في الرجعية، حيث تبدأ في الغالب المنزلقات «الشرعية»[39] للبلاغة في بحثها عن الأصل والأصالة. وهكذا نحصل تقريباً على ما يسمّيه غريماس Greimas الرسالة الدلالية message sémantique[40] وميشال فوكو Michel Faucoult تشكيلة خطابية formation discursive[41] وجوليا كريستيفا إدلوجيم idéologème، دون أن ننسى شعرية المعيار poétique de la norme لدى فيليب هاملتون Philippe[42] Hamon.

هذه الحكاية التنبؤيّة ذات المفعول الرجعي، التي كتبها ابن حبيب بعد قرن تقريباً من فتح الأندلس ستعطي للحدث، بَعْديّاً، كلّ قيمته باعتباره لحظة تأسيسية في التاريخ: إنّه الفتح. المعنى الحرفي للعبارة يعزّز الإشارة إلى الماضي المؤسس للإسلام أكثر من كونه يحيل على بداية هذا الخطاب نفسه، وهو الخطاب الذي يرمي إلى إعادة تثبيت فعل البداية في الزمن. إنّ النص، وهو يثوي في الدال حامل البراديغم، يحيل على النسق: إنّه يؤمّن إعادة إنتاج خطاب «مطابق».

وهذا هو تعريف الميثيولوجيا المبرمجة[43]: خلق الممارسات المستقبلية انطلاقاً من مواد مستقاة من الماضي، ومن ثمّ توجيه هذه الممارسات لخدمة مستقبل يقدّم على أنّه ضرورة، وذلك بعد أن تتمّ شرعنته.

تصنّف السيميولوجيا التاريخ ضمن النصوص التصويرية. وإنّ أسطورة بيانية اللغة هي التي دفعت الخطاب التاريخي في تعطشه إلى الفعالية، دون رادع، إلى الاصطدام بالأقوال الإنشائية شأن عبارة «الفتح». في هذا النص خلط مؤرخنا بين الدال والمرجع وذلك بحجب رابطهما، في حين أنّ إظهار الرابط هو شرط وجود الاستعارة اللفظية.

---

38. Romab (à paraitre): Chap.XI, « Les figures »

39 ـ أنور لوقا، التساؤل على شفا المنزلق، مجلة فصول، المجلد السابع، العددان 3 و4، أفريل- سبتمبر 1987، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ص ص 20-11. (المترجم)

40. Greimas 1966: 121-123

41 ـ ميشال فوكو، حفريات المعرفة، ط2، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت ـ لبنان، الدار البيضاء ـ المغرب 1987 ص 60. (المترجم)

42. Hamon 1984: 5-41.

43. Perrot /alii 1992: 54

بيبلوغرافيا

- ريكور، بول، الزمان والسرد ج3 (الزمان المروي)، ترجمة سعيد الغانمي، ط1 دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت 2006.

- فوكو، ميشال، حفريات المعرفة، ط2، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت - لبنان، الدار البيضاء - المغرب 1987.

- لوقا، أنور، التساؤل على شفا المنزلق، مجلة فصول، المجلد السابع، العددان 3 و4، أفريل - سبتمبر 1987، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة.

- Amengaud, François (1985): La pragmatique, Paris.
- Benviniste, Emile (1966): « Lexique et culture. Problèmes sémantiques de la reconstruction », Problèmes de linguistique générale 1, Paris, 289307-.
- Bordron, Jean-François (1985): « Concept et narrativité » in: Parret, Herman/ruprecht, Hans-George (eds): Exigences et perspectives de la sémiotique, Recueil d'hommage pour Algirdan J.Greimas, 1, Amsterdam-Philadelphie.
- Calloud, Jean (1977): « les portes closes », Sémiotique et Bible 9, 5056- (non signé).
- Calloud, Jean (1990): « L'enclos et la porte. Etude de Jean 10 » in: Fröhlicher, P. (ed): Espace du texte. Recueil d'hommage pour Jacques Geninasca, Neuchâtel, 123138-.
- Certeau, Michel de 1975: L'écriture de l'histoire, Paris.
- Certeau, Michel de 1987: La faiblesse de croire, Paris.
- Chambon, Jean-Pierre /Lüdi, Georges et alii (ed) (1991): Discours étymologiques. Actes du colloque international organisé à l'occasion du centenaire de la naissance de Walther von Wartburg mai 1988, Tûbingen.
- Delorme, Jean (ed) (1987): Parole-Figure-Parabole, Lyon.
- Ducrot, Oswald/Todorov, Tzvetan (1972): Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Paris.
- Dupront, Alphonse (1974): « Anthropologie religieuse », in Le Goff, Jacques /Nora, Pierre (ed), Faire de l'histoire, 2, Paris, 105136-.
- Faucoult, Michel (1969): L'archéologie du savoir, Paris.
- Gilliot, Claude (1987): « Imaginaire social et Magazi », Journal Asiatique, 12-.
- Greimas, Algirdas J/ Courtés, Joseph (1979): Sémiotique. Dictionnaire raisonné de théorie du langage, 1, 2, Paris.
- Hamon, Philippe (1984), Texte et idéologie, Paris.
- Kerbrat-Orecchioni, Catherine (1986): L'implicite, Paris.

- Kerbrat-Orecchioni, Catherine 1994: « Rhétorique et pragmatique: les figures revisitées », Langue française 101, 5771-.
- Kibédi-Varga, Aron 1976: « L'invention de la fable », Poétique 25, 107115-.
- Kleiber, Georges 1994: « Métaphore: le problème de déviance », Langue française 101, 3556-.
- Kristiva, Julia 1970: Le texte du roman. Approche sémiologique d'une structure discursive transformationnelle; La Haye.
- Legendre, Pierre 1985: L'inestimable objet de la transmission, Paris.
- Legendre, Pierre 1992/: Les enfants du texte, Paris.
- Lejeune, Philippe 1976: Le pacte autobiographique, Paris.
- Louca, Anouar 1978, « Le moment inaugurateur en histoire. Analyse d'un texte d'Ibn Abdel-Hakam (803871-) sur la conquête musulmane de l'Egypte », Communication présentée au 9eme congrès de l'union européenne des Arabisants et Islamisants, Amsterdam, ept.1978, in Proceedings of the ninth Congress of the UEAI, Leiden, 1981, 181192-.
- Louca, Anouar (1993): « Projet d'une lecture sémiotique des textes arabes traditionnels », Communication faite au colloque autour de l'œuvre de Mohammed Arkoun, organisé par OROC, Tunis, 1718- dec.1993 (sous presse)
- Meyer, Michel (1993): Questions de réthorique. Langage, raison et séduction, Paris.
- Normand, Guy P (1974): « Histoire de l'histoire », in Encyclopedia Universalis, vol 8, 429433-.
- Panier, Louis 1980: « De l'idéologie dans le discours », Sémiotique et Bible 19, 724-.
- Panier, Louis 1983, « Expansion figurative et sélection sémique dans le commentaire », Sémiotique et Bible 31, 4373-.
- Paret, Rudi 1974: « Die Bedentungsentwickung von Arabisch Fath », in: Barral, J.M(ed) Orientalia hispanica, Mélanges Pareja, Leiden, 537541-.
- Perrot, Marie –Dominique/Rist, Gilbert/Sabelli, Fabrizio (1992): La mythologie programmée, Paris.
- Picoche, Jacqueline/Honneste, Marie-Luce (1994); « Les figures éteintes dans le lexique de haute fréquence », Langue française 101, 112124-.
- Potet, Michel 1978: »Place de la thématologie », Poétique 35, 374384-.
- Rastier, François 1989: Sens et textualité, Paris.
- Rastier, François 1994 « Tropeset sémantique linguistique », Langue française 101, 80101-. linguistique », Langue française 101, 80101-.
- Resweber, Jean-Paul (ed) 1987: Langages et déplacements du religieux ;Paris.
- Ricœur, Paul 1975, La métaphore vive, Paris.
- Ricœur, Paul 1985; Temps et récit, 3: Le temps raconté, Paris.

- Robin, Régine 1973: Histoire et linguistique, Paris.
- Robin, Régine 1986: « L'analyse du discours entre la linguistique et les sciences humaines », Langages 81, 121128-.
- Poman, André (à paraitre): Systématique de la langue arabe.
- Secretan, Philibert 1984: L'analogie, Paris.
- Tajditi, Nizar 1992: De l'histoire à l'hagiographie: Approche sémiotique de la Sira. Naissance et enfance de Muhammad, relatées par Ibn Hishām, Ibn Sa'd et Tabari, Thèse en sciences du langage, université Lumière-Lyon II.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2016

All rights reserved © 2016